باربارا شينكو

آيس كريم القرفة بالعسل

مصحوبة برسومات لـ أوليكِه مولتجِن

دار نشر پيكوس، فيينا

لا أذكر متى رأيتُ "ميلا" لأول مرة. ظهرت ذات يوم في حياتي فجأة وبلا مقدمات. أذكر فقط المرة الأولى التي تكلَّمتُ فيها معها. وكان هذا تحديدًا في يوم من أيام الإثنين في شهر أكتوبر.

الأفضل أن أحدثكم في البداية عن نفسي. أنا "موريتس"، وينادونني بـ "موتس" أيضًا. استأجر أبي وأمي محل "عالم الآيس كريم" في المول. اسم رائع، أليس كذلك؟ "عالم الآيس كريم!" ما أن أسمعه حتى أتخيل أمامي مزارعًا من آيس كريم الليمون والڤانيليا، ومروجًا من آيس كريم الفستق، وأشجارًا من آيس كريم الشوكولاتة يتدلى منها آيس كريم الموز كأوراق الشجر. الكل يعرف "عالم الآيس كريم" الموجود في المول أسفل القبة الزجاجية بين كشك البيتزا ومحل السجائر.

نجد عبارة "عالم الآيس كريم" مكتوبة بخط كبير على يافطة المحل، استبدلوا فيها كلمة "آيس" بآيس كريم على شكل كونو، ثم كتبوا أسفلها: "مولّر ومولّر". كان من المفترض، في رأيي، أن يكتبوا "مولّر ومولّر ومولِّر"، لأنني أعمل هناك أيضًا. ولكنّ بابا يقول إن هذا لا يجوز.

إن لقب "مولِّر" الأول يشير لأمي، لأنها تعمل هناك يوميًا، أما أبي، فأيام السبت فقط. ولكنني أذهب إلى المحل أكثر منه، ولذلك أتخيل أنني أنا المقصود باسم "مولّر" الثاني. وأبي لا يُمانع ذلك ويعلق بواحدة من عباراته الشهيرة: "طالما لن يتضرر أحد!"

دعوني أصف لكم "عالم الآيس كريم". واجهة المحل عبارة عن ڤترينة بها أربعة عشر نكهة من الآيس كريم، ليتمكَّن المارة من شراء الآيس كريم دون أن يضطروا لدخول المقهى. وتجدون خلف الڤترينة دواليب نضع فيها الأطباق والأواني وماكينة القهوة وعلبة الكاكاو، من أجل إعداد الشوكولاتة الساخنة، وكذلك كاونتر يقف الزبائن خلفه لشراء طلباتهم، إضافة إلى طاولات وكراسٍ ومقاعد بمحاذاة الجدران.

في يوم الاثنين هذا تحديدًا، أذكر أن ماما كانت تقف عند ڤترينة الآيس كريم، وكنتُ أنا جالسًا فوق الكاونتر أشاهدها وهي تبيع الآيس كريم. رأيت سيدة عجوز تشتري منها بولتيّ آيس كريم لكل حفيد من حفيديها. بما أننا نبيع بولة الآيس كريم بيورو واحد، فإن سعر أربع بولات آيس كريم يُفتَرَض أن يكون أربعة يورو. قد تبدو حسبة بسيطة. ولكنّ السيدة العجوز كانت تحمل في محفظتها كمية هائلة من العملات المعدنية؛ فئات ٢٠ و١٠ و٥ بل و١ سنت. أخذت تبحث وتفتش في أرجاء محفظتها حتى سمعت رنَّة وكأن عملة معدنية قد سقطت منها واصطدمت بزجاج الڤترينة. ولكنني لم ألتفت للأمر.

كانت هناك فتاة شعرها أسود تقف وراء السيدة العجوز وترتدي فستانًا أحمر وجاكت جلد قصيرة على كولون مخرَّم وحذاء رياضي. كانت تلك الكولونات موضة في ذاك الوقت، حتى أن معظم الفتيات في فصلي كان لديهن منها.

كنت واثقًا أنني رأيتُ هذه الفتاة من قبل. ولكننا نستقبل في "عالم الآيس كريم" مئات الأطفال يوميًا، لأنه يقع أمام مدخل منطقة الأطفال مباشرة. ولذلك، كان من المستحيل أن أتذكرهم جميعًا. وإن كنتُ أتذكَّر بعضهم.

رأيتُ الفتاة تحدِّق إلى فترينة الآيس كريم بطريقة غريبة. لم تكن تنظر إليها بطريقة عادية، بل تبحلق فيها بكل تركيز، وكأنها تريد أن تثقب الزجاج بشعاع من عينيها وتمتص الآيس كريم من الأواني، أو ربما تنسف الفترينة بالكامل –تخيلت ذلك كما يحدث في الأفلام– فتطفو أواني الآيس كريم ببطء في الجو، ثم تدور سريعًا ويخرج منها الآيس كريم، فتلتقطه الفتاة بلسانها حتى آخر قطرة.

كم سيكون رائعًا، لو كان هناك شخص يستطيع القيام بهذه الأمور. قفزت من فوق الكاونتر لأراقب الموقف، لربما أتعلَّم منها كيف يمكنني ثقب الفترينة بشعاع من عيني.

ولكنني نسيت كل هذا بمجرد أن خرجت من باب المقهى، لأنني رأيت أمامي يورو ملقى على الأرض. وعندما التفت ورائي، كانت السيدة العجوز وحفيديها قد انصرفوا بالفعل، ولم أجد لهم أثرًا. كان من الممكن أن يكونوا في أي مكان؛ في محل من المحلات الكثيرة أو في موقف السيارات، أو ربما يكونوا قد ركبوا الترام.

قلت لنفسي: "لا بأس، سأعتبر هذا اليورو بقشيشًا"، وانحنيت لألتقطه من على الأرض.

وإذا بيد أخرى تختطفه من أمامي في لمح البصر. إنها يد تلك الفتاة.

قالت لي: "هذا لي!" وأطبقت يدها بقوة على اليورو حتى أنه بدا لي أن ما من قوة على الأرض من شأنها أن تحرره من يدها. ولم أحاول انتزاعه منها من الأساس، لأنني لن أتشاجر من أجل نقود، ناهيكم مع فتاة. وعلى الرغم من أنني سمعت صوت رنة العملة المعدنية وهي تصطدم بزجاج الفترينة، إلا أنني فجأة لم أعد واثقًا مئة بالمئة إذا ما كان هذا اليورو قد سقط بالفعل من السيدة العجوز أم لا. ربما سقط منها زرًا واختفى أسفل الفترينة، فالكثير من الناس يحملون أزرارًا في محافظهم والكثير من الأزرار ينتهي به المطاف تحت فترينتنا.

قلت للفتاة: "أنتِ محظوظة!"

نظرت لي بغضب وقالت: "ماذا تقصد بـ ’محظوظة‘؟ كدت أن تسرق مني نقودي."

"لم أكن أريد سرقتها بالطبع! و’محظوظة‘ لأنكِ ستتمكنين من شراء الآيس كريم. أتريدينني أن أقترح عليكِ نكهة؟ أنا بارع في اختيار نكهات الآيس كريم ونادرًا ما أخطئ. أبي وأمي يقولون أنها موهبة.

ردت "ميلا": "لا. لا أحتاج لمساعدة."، ثم نهضت وضغطت أنفها على زجاج الفترينة وأنا انتظر بفارغ الصبر، لأعرف أي نكهة ستختار. كنتُ واثقًا أنها لن تختار آيس كريم الفراولة، فمحبي آيس كريم

الفراولة من الصغار لا يرتدون حذاء رياضيًا على فستان، ولا حتى آيس كريم الشوكولاتة أو الڤانيليا. أما آيس كريم السنافر الأزرق، سيكون في الغالب اختيارًا طفوليًا بالنسبة لسنها، والأنواع المرصوصة في الصف الخلفي من الڤترينة تناسب أكثر أذواق الكبار. هل ستختار آيس كريم الستارتشاتِلا الإيطالي الممزوج بقطع الشوكولاتة؟ فهو يليق ببقع النمش على وجهها الشاحب.

كنتُ سأقترح عليها آيس كريم الستارتشاتِلا، ولكنها أشارت إلى آيس كريم المالاجا الممزوج بحبات الزبيب وقالت لأمي: "أريد هذا من فضلكِ."

"المالاجا؟"

أومأت "ميلا" برأسها.

قالت ماما: "آسفة، ولكنه يحتوي على روم (مشروب كحولي). لا يجوز لي أن أعطيكِ منه. أتودين اختيار نكهة أخرى؟"

وقفت "ميلا" مدة طويلة تنظر إلى الڤترينة. لو كان أي شخص آخر في مكان أمي لقال لها: "عودي لاحقًا، إن لم يكن بإمكانكِ حسم قراركِ." فيما عدا أمي، لأنها تحب الأطفال. تحبهم حقًا، ولا تتظاهر بذلك فقط لكونها بائعة. كما أنه لم يكن هناك أحد ينتظر خلف ميلا.

أشارت "ميلا" إلى الزبادي المثلج بالكرز بجوار المالاجا. وضعت لها ماما بولة كبيرة منه في قرطاس الآيس كريم، فأخذته ميلا وانصرفت بعد أن دفعت ثمنه. هذا ما حدث في البداية.

استوقفتُ سيدة مارة من أمام المحل وسألتها: "هل أقترح عليكِ نكهة؟" كانت السيدة ترتدي طاقية تريكو خضراء بلون الفستق، وكان الشال حول عنقها أخضر أيضًا. "أنصحكِ بآيس كريم الفستق والكراميل." فآيس كريم الكراميل هو أكثر نكهة يفضلها الكبار من بين نكهاتنا، ولذلك كان اقتراحًا مضمونًا. وبالفعل اشترت السيدة قرطاسًا من آيس كريم الفستق والكراميل.

ثم جاءت أسرة ومعها خمسة أطفال وسألتني الأم: "هلا اقترحت علينا نكهة أيضًا؟"

نظرت إلى الأطفال، فوجدتهم جميعًا يرتدون بنطالات أفرول بألوان مختلفة؛ زرقاء وصفراء وخضراء. وكانوا جميعًا دون سن المدرسة. تنهدتُ قائلًا: "لدينا آيس كريم سنافر أزرق." أنا لا أقوم عادة باقتراح نكهة على الأطفال دون سن السادسة، لأنهم لا يبالون بما أقول، وجميعهم يريدون آيس كريم السنافر الأزرق فقط.

"آيس كريم سنافر أزرق. رااااائع!" –"هل سأحصل على واحد أيضًا؟" – "وأنا أيضًا!" – "تلك هي نكهتي المفضلة!"

هناك أصناف لذيذة ولها شعبية كبيرة، كالفراولة والفانيليا والشوكولاتة. وهناك أصناف أقل منها جودة ورغم ذلك يتهافت عليها الناس، كآيس كريم السنافر الأزرق بطعم اللبان. من يحتاج لآيس كريم بطعم اللبان؟ يجب أن يكون لكل من الآيس كريم واللبان مذاقًا مستقلًا. ولكن الأطفال في سن الحضانة، ولن أخفي عليكم، بل وبعض أصدقائي في المدرسة أيضًا، يتهافتون على آيس كريم السنافر الأزرق.

وهناك نكهات غريبة وغير مألوفة ولكن مذاقها شهي، كآيس كريم القرفة بالعسل مثلًا، ورغم ذلك لا يقترب منها أحد. لو ما قمنا بتقديم هذا الصنف بسعر مخفَّف باعتباره "نكهة اليوم"، يتبقى منه دائمًا كمية كبيرة وتتناوله ماما في المنزل أمام التلفزيون.

بدأت الأم تفاوض أطفالها على آيس كريم السنافر وعدد البولات المسموح بها لكل منهم. وكانت الفتاة ذات الفستان الأحمر قد انتهت من تناول الآيس كريم ووقفت تراقب المشهد. فقررت أن أذهب إليها، لأنني كنتُ أشعر بالملل. اتخذت طريقًا أطول، لأنني قمت بلفة كبيرة لأتفادى شلة 'أطفال الأفرول' ولم أجد لها أثرا عندما وصلت. هكذا اختفت بكل بساطة.

رحتُ أتلفَّت في كل الاتجاهات، ورأيت حشودًا تسير إلى اليسار وإلى اليمين وإلى الأمام وإلى الخلف، ذهابًا وإيابًا. وأخيرًا رأيت الفستان الأحمر عند محل البرجر، فأسرعت إلى هناك.

ما أن وصلت إلى محل البرجر حتى رأيت الفستان الأحمر يمر من أمام كشك الكباب، ثم من أمام المطعم الصيني للوجبات السريعة. ولكنني أدركته في النهاية عند آخر محل أسفل القبة الزجاجية، وهو محل اللعب. وجدتُ الفتاة جالسة على الأرض أمام فترينة مليئة بالعرائس وألعاب الأطفال الرضع.

"هل أعجبكِ الآيس كريم؟"

انتفضت من مكانها حتى ظننتها للوهلة الأولى أنها ستهرب مني أو تلكمني في وجهي، ولكن يبدو أنها تذكَّرتني في آخر لحظة.

"منتجاتنا هي الأفضل!." أحب الإعلان عن منتجاتنا بلا شك، ولكنه من المعروف في الوقت نفسه أن الآيس كريم المنزلي دائمًا ما يكون أفضل مذاقًا من الماركات التجارية الكبرى. فأنا مثلًا، لا أحب آيس كريم الليمون، ولكنني أحب آيس كريم الليمون الذي تصنعه أمي. قلت لها: "لِماذا هربتِ مني؟"

ردت "ميلا": "لم أهرب منك، بل لأن بائعة الآيس كريم كانت تنظر لي بطريقة غريبة."

"ماذا تقصدين بغريبة؟"

"نظرة غريبة يملؤها الفضول. أرادت أن تعرف إذا ما كنتُ هنا بمفردي."

"وهل أنتِ هنا بمفردكِ؟" كان من غير المعتاد أن ترى طفلة جالسة أمام محل اللعب. لن استغرب إن رأيتُ طفلًا ينتظر خارج محلات الطابق السفلي، حيث ترى حقيبة اليد معروضة في ڤترينتها بخمسمئة يورو، لأن حقائب اليد مملة بالنسبة للأطفال، على عكس اللعب.

قالت "ميلا": "ولكنك بمفردك أيضًا."

هززت رأسي وقلت: "لا، أبي وأمي يعملان هنا."

ردت "ميلا": "وأنا أيضًا."

انتابني الفضول بالطبع وسألتها: "حقًّا؟ أي محل يمتلكان؟"

استدركت "ميلا" قائلة: "أمي فقط هي من تعمل هنا." ثم قالت: "وليس لديها محل. فهي عاملة نظافة."

"أين؟"

"في أي مكان. إذا أسقط أحدهم شيئًا وانكسر أو انسكب شيء ما على الأرض ينادون لأمي، فتأتي وتنظف المكان."

كنتُ دائمًا ما ألاحظ أن أرضية المول تبرق من شدة نظافتها، ورغم ذلك لم أفكِّر قط كيف أصبحت هكذا. كانت أمي تمسح بقع الآيس كريم من أمام الڤترينة بنفسها، ولكنني لستُ واثقًا إن كان كل الباعة يفعلون ذلك، ولا أظن أن محلات الطابق السفلي لديها أقمشة للمسح والتنظيف من الأساس، إلا لو كانت مرصعة بالألماس.

"وماذا لو احتاجت لمكنسة لكنس شظايا الأشياء المكسورة؟ ألديها واحدة؟"

أومأت "ميلا" برأسها: "لديها مكنسة صغيرة تعمل بالبطارية". ما أن سمعت ذلك حتى تصوَّرت والدة "ميلا" في خيالي، وكأنها بطلة خارقة، تنطلق عبر الممرات بمكنستها اللاسلكية. وربما لم تكن تعمل لدى الشركة المالكة للمول، بل لدى منظمة سرية لعاملات التنظيف الخارقات. تلفَّتُ في هذه اللحظة حولي لربما أرى عاملة نظافة ترتدي قناعًا ورداء كرداء سوبرمان في الأنحاء.

قالت "ميلا": "ستمر عليّ بعد أن تنتهي من عملها. سأنتظرها هنا."

"هل لديك واجبات مدرسية؟" يمكنكِ القيام بها في المقهى عندنا. أمي لن تمانع بالتأكيد." ففي أيام الاثنين، دائمًا ما تكون الأجواء هادئة في "عالم الآيس كريم". ولكن "ميلا" لم توافق على اقتراحي على أي حال.

شعرت بمعدتي تقرقر من الجوع، وتذكَّرت أنني لم أتناول شيئًا سوى الآيس كريم منذ أن عدتُ من المدرسة. "سأذهب لإحضار وجبتي الخفيفة. أعود في أقل من خمس دقائق. هل سأجدكِ هنا؟" هزت "ميلا" كتفيها.

ركضت إلى "عالم الآيس كريم" وبسرعة سحبت معي الكيس، الذي كانت ماما قد أحضرته من البيت من أجلي. عدت مرة أخرى وجلست بجوار "ميلا". فتحت الكيس لأجد تفاحًا وسندوتشات مصنوعة من خبز القمح الكامل ومحشوة بالجبن الطازج والفجل، لأنه من وجهة نظر أبي وأمي ’لا يمكن لشخص أن يعيش على الآيس كريم طوال اليوم‘. والكبار كثيرًا ما يستخدمون عبارة ’لا يمكن‘ بدلًا من ’ممنوع‘.

كانت "ميلا" تحمل حقيبة كتف خضراء عليها وجه قرد. ظننت أنها ستُخرج منها وجبة خفيفة وتبدأ في تناولها، لأنني أشعر أن المرء يستمتع أكثر عند تناول طعامه مع شخص آخر. ولكن "ميلا" نظرت فقط إلى التفاح وسندوتشات الجبن الطازج.

"أليس معكِ وجبة خفيفة؟"

"بلى." ترددت قليلًا، وقالت: "أهديتها لشخص ما." ثم همست وكأنها ستخبرني بسر خطير، وقالت: "رأيت رجلًا فقيرًا وأخبرني أنه لم يتناول شيئًا منذ ثلاثة أيام."

كان هذا في رأيي تصرفًا لطيفًا حقًا. سألتها: "وماذا كان فيها؟"

"تفاح وقطعة جرانولا، وسندوتشات مثل سندوتشاتك، ولكن بالفلفل الرومي بدلًا من الفجل."

أعطيتُ ميلا تفاحة وسندوتش جبن وقطعة من قطعتي جرانولا، كنتُ قد عثرت عليهما في قاع الكيس. تناولت ميلا تفاحتها بالكامل، بالبذر واللّب وكل شيء، والتهمت السندوتش وقطعة جرانولا في لمح البصر. ولكن، بدا لي أنها مازالت تشعر بالجوع.

"هل معك أي شيء آخر؟" نظرت لي بتشكك ثم أخرجت من حقيبتها خرقة، أو هذا ما ظننته في البداية. اندهشتُ أنها تحمل في حقيبتها خرقة تنظيف، وسألت نفسي: هل تخص أمها؟

ولكنها لم تكن خرقة تنظيف بل لعبة فرو على شكل فيل لديه أرجل وزلومة طويلة وجسم صغير جدًا. بدأت "ميلا" تدغدغ أذني الفيل، الذي كان مليئًا بالبقع، وبدا وكأنه مسحوقًا وأكبر سنًا من "ميلا" نفسها.

كانت ڤترينة المحل خلفنا مليئة بالألعاب الفرو، ومنها ما هو على شكل فيل. فجأة خطرت لي فكرة: ربما تنتظر ميلا أمها هنا لتريها الهدية التي تتمنى الحصول عليها في الكريسماس.

كان حلمي وأنا طفل صغير أن أعيش في محل لعب. تصورتُ أنه سيكون في غاية الروعة أن أتمكن كل يوم من اللعب بلعبة جديدة دون أن أضطر لانتظار الكريسماس أو عيد ميلادي لأحصل على لعبة رائعة ودون أن يكون عليّ ترتيب المكان من بعدي، فالباعة هم من سيتولون ذلك نيابة عني.

ولكننا عندما نكبر نستوعب أنها مجرد فكرة سخيفة ومستحيلة في الوقت نفسه. لن يُسمَح لنا بفتح ألعاب كثيرة على أي حال، وحتى وإن سمحوا لنا بذلك، فإننا لن نستمتع باللعب بألعاب لا تخصنا، سنظل دائمًا شاعرين بالخوف من أن تتخدش أو تتبعج أو ينكسر منها جزء فنضطر عندئذ لشرائها.

التفتُ لـ "ميلا" وقلت لها: "أتريدين دخول المحل؟ سأريكِ اللعبة التي أتمنى الحصول عليها في الكريسماس." كنت أعرف مكان الأرفف التي يعرضون عليها أفضل الألعاب الإلكترونية.

ولكنّ "ميلا" هزت رأسها واحتضنت فيلها بقوة، ففهمت أن أمها لا تمتلك، على الأرجح، الكثير من المال. ربما لم يكن بمقدروها شراء فيل جديد ولا حتى في الكريسماس. ندمت على سؤالي. وقلت لها: "أو يمكننا أن نبقى هنا ونلعب."

"ماذا سنلعب؟"

"أي شيء. اقترحي أنتِ شيئًا."

فكرت "ميلا" قليلًا ثم قالت: "لنلعب لعبة 'الكلمات الطائشة'."

لم أكن أعرف هذه اللعبة. "كيف نلعبها؟"

"يبدأ أحدنا بقول كلمة طائشة."

"وماذا بعد ذلك؟" "يرد الآخر بكلمة أخرى طائشة ونتناوب."

شعرتُ أنها لعبة سهلة ورغم ذلك طلبت من ميلا أن تبدأ أولًا.

قالت: "سلطة خيار."

فكرت في ڤترينتنا وقلت: "آيس كريم سنافر أزرق."

"كوافير الكلاب."

"فيل من الفرو."

وهكذا تطايرت الكلمات بيني وبينها. "حمام السيدات." – "مجفف الأيدي بحمام الرجال." – "برجر بالشوكولاتة. وسلطة خيار."

"منظمة عاملات التنظيف الخارقات." كانت تلك هي أكثر كلمة طائشة خطرت ببالي، ولكن "ميلا" لم تضحك، بل نظرت فجأة ورائي.

التفتُ ورائي في فضول وقلت لها: "هل جاءت والدتكِ؟"

"متى ستأتي لاصطحابكِ؟"

سكتت "ميلا"، فتوقعت أنها ستقول لي: "لن تأتي أبدًا" أو "بعد ألف سنة" أو أي إجابة أخرى طائشة.

ولكنها قالت لي بنبرة غاضبة: "إن كنت لا تريد اللعب، سأذهب!" ونهضت مندفعة من مكانها، وانصرفت حتى اختفت بحقيبتها وفيلها الفرو بين حشود الناس.

كان هذا أول لقاء لي بميلا.